المحاضرة الافتتاحية

لغة القرآن الكريم

د. محمد هيثم الخياط

الباحث في سطور

الدكتور محمد هيثم الخياط

- من مواليد 1937م، دمشق.
- حاصل على درجة الدكتوراه في الطب من كلية الطب بجامعة دمشق.
- حاصل على شهادة أهلية التعليم العالي من جامعة بروكسل ببلجيكا.
- كبير مستشاري المدير الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية لشرق المتوسط.
- عضو مجلس أمناء الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.
- عضو مجلس أمناء المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية.
- رئيس تحرير المجلة الصحية لشرق المتوسط.
- مقرر مشروع المعجم الطبي الموحد.
- عضو في أغلبية مجامع اللغة العربية.
- عضو في أكثر من 20 جمعية علمية في مختلف أنحاء العالم.

من إنتاجه العلمي:

- المرأة المسلمة وقضايا العصر.
- المعدة بيت الداء والحمية بيت الدواء.
- في سبيل العربية.
- معالم العبادات.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

شكرا لأخي الكريم الشاهد الذي قطع عنقي بثنائه، وأرجو أن لا أخيّب ظنّه، فتسمعون بالمعيدي خير من أن تروه، وأمرٌ آخر، أنا أقول دائما عندما تتقدّم بالمرء السنّ، يصاب على الأقل بعاهتين اثنتين: أولاهما أنه يكثر كلامه، والثانية: أنه يظنّ أنه يعرف أكثر من الآخرين، فاعذروني إن وجدتم في كلامي شيئا من هاتين الخَلّتين.

أرأيت لو كنت واحدا من أهل مكّة يوم أُنزل القرآن، تشاطر أهل هذه البلدة أسمارهم وأساطيرهم وتقاليدهم، وأموالا اقترفوها وتجارة يخشون كسادها ومساكن يرضوْنها، وثاراتٍ يثأرون لها، ومآثر يستمسكون بها، ورحلة الشتاء والصيف، ثم سمعت منادياً ينادي للإيمان، فلا يتحدث عن شيء من ذلك كلّه، ولا عن معاشِك، ولا عن أعرافك، ولا عن عبادتك، ولا عن شعائرك؛ وإنما يقول لك في أوجز خطاب وأعجبه:

«اقرأ، اقرأ !»

أفما كان يفجؤُك هذا النداء، ويستبدّ بك العجب، اقرأ ! وأنت من أمّة أمية لا تكتب ولا ترسم. اقرأ ! ثمّ يرتفع بك كلمحٍ بالبصر من حضيض هذه الأرض التي أخلدت إليها إلى سدرة المنتهى، ﴿ٱقْرَا بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلذِى خَلَقَ﴾[1] هكذا لا ينبؤك أن لك ربّا خالقا، وإنما يخاطبك بما هو أمر مفروغ منه منذ زمن بعيد، يوم ﴿وَإِذَ اَخَذَ رَبُّكَ

(1) سورة العلق، آية 1.

مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾[1].

ولك أن تتوقع بعد ذلك أن تتحدث العبارة التالية لهذه المقدمة الرائعة عن صلتك بربّك الذي خلق، وعن كيفية تبتّلك إليه وعبادتك إياه؛ ولكن القرآن العجب يفجؤك مرةً أخرى بأن يقرع سمعك بحقيقة من حقائق علم الجنين ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾[2] تهيئة لنفسك، وإعدادا لعقلك أن تعرف ماهية العلم الذي يتحدث القرآن عنه بعد قليل، أنه العلم الذي علّمه إياك، ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾[3]،

ثم تعود بك الآيات إلى لحظة الخلق الأولى، وهي لحظة مركوزة في فطرتك، منحوتة في ذاكرة خلاياك، لحظة ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾[4]، فتُذكَّرك إن كان الشيطان قد أنساك أن الله هو الذي ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[5]، ثمّ تجول بك الآيات في مجالات شتّى، فتذكُرُ لك حقيقة من حقائق علم النفس ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾[6]، ثمّ تلفتك إلى أن رجعاك ومعادَك إلى ربّك الذي بدأ خلقك من علق.

وهكذا في نسق عجيب يربط الدنيا بالآخرة، ويمازج بين آيات الله في الأنفس والآفاق، وبين آياته في العبادة والتقوى تتواصل آيات السورة إلى نهايتها في نبضات

(1) سورة الأعراف، آية 172.
(2) سورة العلق، آية 2.
(3) سورة العلق، آية 3ـ4.
(4) سورة البقرة، آية 30.
(5) سورة العلق، آية 5.
(6) سورة العلق، آية 6ـ7.

مرسومة؛ كلّ نبضة منها تهزّ وتراً من أوتار نفسك التي جُبِلَت على عمارة الدنيا وعمارة الآخرة، واستعدت بفطرتها للتبحّر في كلّ ما علّم الله الإنسان من علوم الدنيا وعلوم الآخرة، وكلّ ميسّر لما خُلِق له.

نعود إلى أولئك النفر من قريش الذين استمعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلّم يخاطبُهم بذلك الخطاب العجيب ﴿اِقْرَا﴾[1]؛ كيف كان ردّهم على تلك السورة التي تجمع علم الجنين إلى علم النفس، وتذكّر بالربّ الذي خلق والذي علّم، والذي إليه المرجع والمآب، وتحث على السجود الذي يحقّق غاية الاقتراب، كان ردّهم «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله».

هكذا بكلّ بساطة أيقنوا أن هذا الكلام الذي لم يعهدوه ولم يسمعوا بمثله؛ هم كانوا سادة الكلام وأبلغ البلغاء، لا يمكن أن يكون إلا من عند الله، ﴿اَفَلا يَتَدَبَّرُونَ اَلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اَللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اِخْتِلَٰفاً كَثِيراً﴾[2].

ثمّ تتواصل آيُ القرآن تترى على مدى ثلاثة وعشرين عاماً يطالع الناس فيها دائما ما طالعهم في الآيات الأُول من كلام معجب مبهر، ويتجاوبون معها تجاوبهم مع الآيات الأول، ثم يورث الله الكتاب الذين اصطفى من عباده، أولئك الذين سمّاهم سبحانه المسلمين من قبل ﴿وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ اَلرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى اَلنَّاسِ﴾[3].

ويبقى هذا الكتاب الكريم مرجعنا الأول ومصدر إسلامنا وينبوع حضارتنا، ويبقى الأصل الأول والمرجع الفيصل في استنباط الأحكام الشرعية، لا يجوز أن يعمل بغيره

(1) سورة العلق، آية 1.
(2) سورة النساء، آية 81.
(3) سورة الحج، آية 76.

من الأصول إذا خالف. يقول الإمام ابن حزم في الإحكام: لمّا بيّنا أن القرآن هو الأصل المرجوع إليه في الشرائع، نظرنا فيه فوجدنا إيجاب طاعة ما أمرنا به رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلّم، وجدناه ﷻ يقول فيه واصفاً لرسوله ﷺ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[1]، فصحّ لنا بذلك أن الوحي من الله ﷻ إلى رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلّم على قسمين:

أحدهما: وحيٌ متلوٌّ مؤَلّفٌ تأليفا معجزَ النظمِ وهو القرآن الكريم.

والثاني: وحيٌ غير متلوٍّ، ولكنه مقروء، وهو مرويٌّ منقول، غير مؤلّف تأليفا معجز النظم، وهو الخبر والوارد عن رسول الله، وهو ﷺ المبيّن عن الله ﷻ مراده منّا؛ قال تعالى ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

ووجدناه تعالى قد أوجب طاعة هذا القسم الثاني كما أوجب طاعة القسم الأول الذي هو القرآن ولا فرق، فقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾[3]، في عدد من الآيات المماثلة، ويدلّ ذلك على أن أوامر النبيّ ﷺ ونواهيه، وسائر أحاديثه المتعلّقة بأمر ديننا، كلّها تندرج في عداد الوحي غير المتلوّ، وكلّها من الذِّكْر الذي أنعم الله ﷻ على هذه الأمة بحفظه من التحريف ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[4]، فاتفقت على ألفاظه ونصوصه، وإن اختلفت أحيانا في فهم هذه النصوص.

---

(1) سورة النجم، آية 3ـ4.

(2) سورة النحل، آية 44.

(3) سورة محمد، آية 34.

(4) سورة الحجر، آية 9.

وتلاوة آيات القرآن الكريم هي المهمة الأولى من مهام النبيّ صلى الله عليه وعليه وسلّم، التي ورد ذكرها في غير ما آية من آيِ الذكْر الحكيم، ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾(1)، ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾(2)، ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾(3)، واستُجيبت لذلك دعوة أبيهم إبراهيم ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾(4).

ولنقرأ أول ما يصف الله به كتابه الكريم؛ وهو أفضل وصف وأصدقه، يقول سبحانه وتعالى في الآية الأولى من سورة الحجر ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾(5)؛ في الآية الأولى من سورة النمل ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(6)؛ فهي آيات الكتاب وآيات القرآن، وهو قرآن مبين وهو كتاب مبين، ويعني ذلك أولا وقبل كلّ شيء أن القرآن هو الكتاب، وأن الكتاب هو القرآن؛ فلا تلتفت إلى من يريد التفريق بين الكتاب والقرآن.

---

(1) سورة آل عمران، آية 164.

(2) سورة البقرة، آية 150.

(3) سورة الجمعة، آية 2.

(4) سورة البقرة، آية 128.

(5) سورة الحجر، آية 1.

(6) سورة النمل، آية 1.

ثمّ إن صفة القرآن التي ذُكرت هنا هي أنه مبين، وقد ذكرت هذه الصفة كثيرا في كتاب الله، كما في قوله تعالى ﴿أَلٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾[1]، ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾[2]، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلاَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[3]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً﴾[4]، ومعنى مبين:

أولا: أنه بيّن؛ أي واضح مفهوم للناس، ﴿وَلَقَد اَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾[5]، ﴿هُو ٱلذِے يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾[6].

وثانيا: أنه مبيِّنٌ؛ أي موضّح مفسّر، ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلذِے إِخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ﴾[7]، ﴿وَلَقَدَ اَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلاً مِّنَ ٱلذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[8]، قد أنزل الله إليكم ذكْراً ﴿رَّسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيَّنَٰتٍ﴾[9]، وقد قال عنه الله تعالى ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[10].

---

(1) سورة يوسف، آية 1.
(2) سورة يس، آية 68.
(3) سورة الشعراء، الآيات: 193ـ195.
(4) سورة النساء، آية 173.
(5) سورة البقرة، آية 98.
(6) سورة الحديد، آية 9.
(7) سورة النحل آية 64.
(8) سورة النور، آية 34.
(9) سورة الطلاق، آية 11.
(10) سورة آل عمران، آية 138.

وما ذلك كلّه إلا من أجل أن يتعايش الإنسان معه دون تفسيرات معقّدة، نعم نحتاج أحيانا إلى تفسير بعض الكلمات التي أصبحت غريبة بالنسبة إلينا لأننا ابتعدنا عن عهد النبوّة، وبعد هذا نعيش نحن مع القرآن ونتفاعل معه، فكيف نستطيع أن نفهم هذا القرآن الكريم الذي هو نور يضيء وينير لنا الطريق الذي هو واضح مبيّن كما قال ﷻ عنه ﴿قَد جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾[1]، وكما قال عنه النبيّ النبيّ صلى الله عليه وعلى آله وسلّم «كتاب الله فيه الهدى والنور»[2].

إن حسن فهم آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ، يحتاج إلى ثلاث أدوات لابدّ منها جميعا؛ بحيث يؤدي النقص في أيّ واحدة منها إلى سوء فهم الآية أو الحديث:

أولى هذه الأدوات: التعمق في اللغة العربية لأنها اللسان الذي نزل بها القرآن الكريم، وتحدث به النبيّ صلى الله عليه وعلى آله وسلّم.

وثانية هذه الأدوات: العقل؛ لأنه الميزان الذي ربط الله به التكليف، وعلى قدر سلامته يحاسب المكلّفين، وبه يُوازن الإنسان بين الأمور، ويميّز الصحيح من الفاسد، ويتجنّب التناقض في سلوكه وآرائه.

وثالثها: التمكّن من فقه الشريعة الذي يعرف العالم به مقاصدها ويقيس الأمور بأشباهها، ويعرف محامل النصوص، ويميّز بين الوسائل والغايات، ويدرك فقه الأولويات.

---

(1) سورة المائدة، آية 17.

(2) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب: من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حديث رقم: 36.

يجدر بنا تماشّيا مع موضوع هذا البحث أن نتحدّث عن الأداة الأولى بفضل تفصيل، فما دام القرآن الكريم قد نزل بلسان عربي مبين، وقد وُصف بأنه قرآن عربيّ، فلا بدّ حتى نفهمه ونفهم حديث النبيّ صلى الله عليه وعلى آله وسلّم؛ بأن نتعرّف على معاني الكلمات كما كان يفهمها العرب يوم نزل القرآن، فلقد قال الله سبحانه وتعالى عن كتابه مخاطبا نبيّه صلى الله عليه وعلى آله وسلّم ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1]، و يعني ذلك أمرين اثنين:

أوّلهما: أن القرآن ميسّر للفهم ﴿وَلَقَد يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾[2].

وثانيهما: أنه قد نزل بلسان الرسول الذي كان يتحدّث به، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[3]. أي بلغة العرب المتداولة في ذلك الوقت، وهي لغة مضر أي لغة قريش ومن جاورها من العرب، وبرهان ذلك توجيه سيّدنا أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه لكتّاب القرآن من المهاجرين، «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من عربية القرآن فاكتبوه بلغة قريش، فإن القرآن نزل بلغتهم»، ولذلك قال العلاّمة ابن خلدون في المقدمة «وإنما وقعت العناية بلسان مضر...، وكان القرآن منزّلا به، والحديث النبويّ منقولا بلغته»[4].

فكثيرة، كثيرة هي الكلمات التي ابتعد عامة الناس عنها، بل حتى بعض فقهائهم ومفسّريهم، بمعانيها عن المعاني التي نزل به القرآن، أو جاء بها حديث النبيّ ﷺ، ثمّ أخذوا يلوون أعناق النصوص القرآنية والنبوية لتتّفق مع مصطلحات العصر الذي

(1) سورة الدخان، آية 55.
(2) سورة القمر، آية 17.
(3) سورة إبراهيم، آية 5.
(4) مقدمة ابن خلدون (3/ 253).

يعيشون فيه، وهو ما لفت النظر إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الرسائل والفتاوي، فقال: «ومن أعظم أسباب الغلط في فهم كلام الله ورسوله، أن ينشأ الرجل على اصطلاح حادث فيُريد أن يفسّر كلام الله بذلك الاصطلاح، ويحمله على تلك اللغة التي اعتادها»[1]؛ ولذلك كان لابدّ من العودة إلى المعاني الأصلية لهذه الألفاظ يوم نزل القرآن، حتى نفهم القرآن حقّ فهمه ونتلُوَه حقّ تلاوته، ومن قبل قال العلامة ابن خلدون في المقدّمة «ولغة أهل الجيل ـ أي جيله ـ كلّهم مغايرة للغة مُضَرَ التي نزل بها القرآن، وإنما هي لغة أخرى»[2]، بل قال أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة أربع وخمسين ومائة للهجرة، وهو من أعلم الناس بلسان العرب وكلامها وأساليبها، قال: «اللسان الذي نزل به القرآن وتكلّمت به العرب على عهد الرسول ﷺ؛ عربية أخرى غير كلامنا هذا»[3]، هذا عام ستّ مائة وأربعٍ وخمسين للهجرة.

ونحن الآن في القرن الخامسِ عشرَ، وقد وضّح ذلك أجمل توضيح العلامة الجليل الدكتور محمد أحمد الغمراوي رحمه الله فقال: «والقراءة الصحيحة وحدها لا تكفي، إذا لم تحتفظ اللغة العربية لغة القرآن بمعاني كلماتها الأصيلة زمن نزوله، واللغات إذا تركت للتطور الزمني اختلفت وتراكم الاختلاف حتى لا يفهم آخر أبنائها آثار آبائه الأولين، وعندئذٍ يستغلق كلام الله على المؤمنين إن لم يفهموا منه بفعل هذا التطور ما أراد الله، فيضلّوا عن دينه. ولا يكفي في فهم مراد الله من آيات الأحكام في القرآن فهم كلماته وعباراته على العربية العريقة التي كانت في عهد الرسول ﷺ ، إذ لابدّ لفهم كلّ ما أراد الله فيه، مما شرع للناس به من الإحاطة بسنّة الرسول ﷺ قولا

(1) مجموع الفتاوى (12/ 107).
(2) مقدمة ابن خلدون (3/ 259).
(3) بيان إعجاز القرآن (45ـ46).

وعملا، فسخّر للسنّة رجالا أعدّهم سبحانه لحفظها جميعا وتمييز صحيحها من مدخولها، وتمييز أقدار رُواتها على نسق صحيح علميّ سبق المسلمون العالم إليه بهدىً، وتأييدٍ من الله، متبعين في ذلك المبادئ التي سنّها الله في القرآن لمن يريد الوصول إلى الحق في أي مجالات النظر والبحث شاء». انتهى كلام الدكتور الغمراوي رحمه الله.

وبعد، فهذا التطور في معاني الكلم مع مرور الزمن أمر طبيعي في جميع لغات البشر، وهو تطور لا يعيب اللغة في شيء؛ بل إنه دليل على حيوية اللغة وتفاعلها مع ما يستجد من أحوال، ولقد أشار إلى هذا التطور الإمام ابن حزم في الإحكام فقال: «قد وجدنا في اللغة ألفاظا نُقلت عن معهودها وعن موضوعها في اللسان وعلّقت على أشياء أخر، فعلى ذلك خالق اللغة وأهلها الذي رتّبها كيف شاء ﷻ، أو فعل ذلك بعض أهل اللغة من العرب، أو فعل ذلك مصطلِحان فيما بينهما، كما نقل تعالى اسم الصلاة عن موضوعها في اللغة، عن الدعاء إلى استقبال الكعبة ووقوف وركوع وسجود وجلوس، بصفات محدودة لا تُتعدّى، ... وكما نقل اسم الكفر عن التغطية إلى أقوال محدودة ونيات معلومة، فإذ قد وجدنا ذلك لزمنا إذا قام دليل على أن لفظا ما قد نُقل عن موضوعه من اللغة ورتّب في مكان آخر؛ أن يعتقد ذلك، وأما ما لم يقم دليل على نقله فلا سبيل إلى إحالته عن مكانه البتة... والاسم إذا وقع على معنى ما وأوقعه الله تعالى أيضا على معنى آخر، فقد نقله عن حكم الوقوع على معنى واحد إلى حكم الوقوع على معنيين»[1].

الواقع أننا لا نكاد نجد في عصرنا الحاضر قولا إلا وقد يوجد موضوعا في غير بنيته الأصلية في اللغة، إما على المجاز أو الاتفاق بين المتخاطبين، ولكن ذلك لا يعني بأيّ حال من الأحوال، أن يبطل حمل الألفاظ على معانيها الأصلية التي رتّبت لها في اللغة

(1) الإحكام في أصول الأحكام (3/ 5).

أو أن يفهم الكلام القديم فهما محجوبا بظلال من معنى حادث، فمَنشأ الغلط في فهم كلام الله تعالى ورسوله، وهو ما ذكر شيخ الإسلام رحمه الله، هو أن نفسّر كلام الله القديم بالمصطلح الحادث بل أن نلوي أعناق النصوص لنحمل كلام الله على هذا المعنى الذي ألفناه اليوم، ولو أن لم يكن قد وُلد زمن نزول القرآن، وذلك كمن يقرأ قوله تعالى في سورة يوسف ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾[1]، فيَفهم منها أنها هذه المركبة ذات العجلات والمحرّك التي يركب الناس كلّهم في هذه الأزمان.

ولعل من أهم القضايا التي تنبغي الإشارة إليها في صدر الحديث عن لغة القرآن؛ قضيتان اثنتان أو قضايا ثلاث، يخطئ فيها الكثيرون في هذه الأيام، قضية الخطاب القرآني وقضية المترادف، وقضية التأصيل في استعمال العقل السليم في فهم كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ.

ونبدأ بالخطاب القرآني، أي لغة المخاطب في القرآن الكريم.

واللغة العربية عموما نوعان من الخطاب:

ـ أحدهما: خطاب للإناث وحدهن.

ـ والثاني: خطاب مشترك، للذكور والإناث معا.

أما خطاب للذكور وحدهم فليس من خصائص العربية، وأكثر ما يطالعنا في القرآن الكريم هو الخطاب المشترك؛ فقوله ﷻ مثلا ﴿وَأَن أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾[2]، ليس موجّها للرجال وحدهم، ولكن كثيرا من الناس يخطئ، ويعطّلون كثيرا من الآيات المحكمة من القرآن الكريم بسوء الفهم هذا؛ وقال الإمام ابن القيم في إعلام

(1) سورة يوسف، آية 19.

(2) سورة الأنعام آية 72.

الموقعين: «وقد استقرّ في عرف الشارع أن الأحكام المذكورة بصيغة المذكّرين، إذا أطلقت ولم تقترن بالمؤنث؛ فإنها تتناول الرجال والنساء»، وقال الإمام ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: «والنساء شقائق الرجال في الأحكام إلا من خُصَّ»[1]، كما نقل قول الكرماني: «حكم الرجل والمرأة واحد في الأحكام الشرعية»[2]، بل لا خلاف بين المسلمين في أن قوله تعالى ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾[3]، واقعٌ على إناث الخنازير كَوُقوعِه على ذكورها بنفس اللفظ للنوع كلّه»، ومن قبل قال الإمام ابن حزم في (الإحكام) «ولا خلاف بين أحد من العرب، ولا من حامل لغتهم أولهم عن آخرهم في أن الرجال والنساء، وأن الذكور والإناث إذا اجتمعوا وخُوطِبوا أو أُخبِر عنهم، أن الخطاب والخبر يردان بلفظ الخطاب والخبر عن الذكور إذا انفردوا ولا فرق، وأن هذا أمر مطّردٌ أبدا على حالة واحدة فصحّ بذلك أنه ليس لخطاب الذكور خاصة لفظ مجرّد في اللغة العربية غير اللفظ الجامع لهم والإناث إلا أن يأتي بيان زائد بأن المراد الذكور دون الإناث»[4].

فلمّا صحّ ذلك، لم يجز حمل الخطاب على بعض ما يقتضيه دون بعضٍ؛ إلا بنصّ أو إجماع، على سبيل المثال آيات متوالية ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[5]، الرجال والنساء، ثمّ ﴿وَالَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[6]، كلّ من الرجال والنساء. ﴿وَأَمْرُهُمْ

(1) (1/ 254).
(2) فتح الباري (1/ 587).
(3) سورة البقرة، آية 172.
(4) الإحكام (3/ 80).
(5) سورة الشورى، آية 33.
(6) سورة الشورى، آية 35.

شُورىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1]، قال هؤلاء الرجال فقط، بعد ذلك ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[2]، تعود الآيات إلى الرجال والنساء معا، هذا نوع من اجتزاءٍ جزئي يخالف كل ما عليه العرب، وفيه مخالفة صريحة، لأمر الله ﷻ لأنه حينما يأمر أمراً يريد به الجنسين معا فلا يجوز أن نستثني واحدا منهما إلا بدليل صحيح صريح.

ولذلك يقول الإمام ابن حزم أيضا «ولمّا كان رسول الله ﷺ مبعوثا إلى الرجال والنساء بعثاً مستويا أي سواء بسواء، وكان خطاب الله تعالى، وخطاب نبيّه ﷺ للرّجال والنساء خطاباً واحدا، لم يجز أن يخصّ بشيء من ذلك الرجال دون النساء، إلا بنصّ جليّ أو إجماع»[3]، إلى أن يقول: بعد ذكر أزواج النبيّ ﷺ وعددا من كرائم الصحابيات رضي الله عنهن، ولا خلاف بين أحد من المسلمين قاطبة في أنّهن مخاطبات بقوله تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ﴾[4]، ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[5]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰٓا﴾[6]، ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾[7]، إلى آخر هذه الآيات، وقد سأل عمرو بن العاص رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلّم: «أيّ الناس أحبّ إليك، قال:

(1) سورة الشورى، تتمة الآية السابقة.
(2) سورة الشورى، تتمة نفس الآية.
(3) الإحكام (3/ 81).
(4) سورة البقرة، آية 42.
(5) سورة البقرة، آية 184.
(6) سورة البقرة، آية 277.
(7) سورة النور، آية 33.

عائشة، قال ومن الرجال، قال: أبوها»[1]، ورسول الله ﷺ أعلم الناس باللغة التي بعث بها، فحمل اللفظ على عمومه في دخول النساء مع الرجال.

وعندما توهّمت إحدى الصحابيات؛ وهي أمّ عمارة الأنصارية أمراً من هذا القبيل، أتت النبيّ فقالت: ما أرى كلّ شيء إلا للرجال، وما أرى النساء يذكَرنَ بشيءٍ، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُومِنِينَ وَٱلْمُومِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيراً وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾[2]، لا لهم ولا لهنّ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾[3]، فبيّن الله سبحانه بقوله أعدّ الله لهم أن هذه الصيغة المشتركة «لهم» تمثّل الرجال والنساء جميعا ولا فرق، وذلك بعد أن طيّب خاطر هذه الصحابية المجاهدة بإبراز صيغة التأنيث في صفات المؤمنين، وقد لفت نظرنا إلى هذه اللطيفة من لطائف القرآن أخونا الفاضل الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين رحمة الله عليه.

بل إن مما يتفرّد به لسان العرب أنه يقرّر حقيقة التساوي الأصلي بين الرجل والمرأة، فيطلق على كلّ منهما لفظا واحدا وهو «الزوج»، فالرجل زوج المرأة وهي زوجه أيضا، هذه هي اللغة العالية، كما ورد في المصباح المنير وتاج العروس، وبها جاء القرآن، ولو أن لفظة الزوجة قد استعملت فيما بعد؛ وأُجيزت كذلك أن يقال «عروس» و«بعل» لكلّ من الرجل والمرأة.

---

(1) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: أصحاب النبي ﷺ ، باب: قول النبي ﷺ «لو كنت متخذا خليلا»، حديث رقم: 3662.

(2) سورة الأحزاب، آية 35.

(3) سورة الأحزاب، تتمة الآية السابقة.

ولعلّنا نجد كذلك لغة الخطاب في الغزل والنسيب من شعر العرب بهذه الصيغة المشتركة، حتى عندما يراد بها المحبوبة الأنثى، دون أن يعني ذلك أبدا أنه تشبيبا بالذكور كما يظنّ بعض الدارسين السطحيين.

بل إن لفظة الرجل نفسها عندما ترِد في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ بمعنى الإنسان؛ أي الذكر والأنثى، ولا تعني الذكر إلا إذا وجدت قرينة تدلّ على ذلك؛ كأن تأتي لفظة النساء مع لفظة الرجال في نفس السياق، وإلا فهي تتناول الجنسين معا كما في قوله تعالى ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾[1]، وقوله تعالى ﴿مِّنَ ٱلْمُومِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[2]، وقوله تعالى ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾[3]، وقوله تعالى ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾[4]، وقوله ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾[5].

بل صحّ عن النبيّ ﷺ قوله في المواريث: «ألحقوا الفرائض بأصحابها، فما فضَل فلأولَى رجل ذكر»[6]، لماذا قال رجل ذكر لأن «رجل» تنطبق على الأنثى والذكر، وكما

(1) سورة الأحزاب، آية 4.
(2) سورة الأحزاب، آية 23.
(3) سورة الزمر، آية 28.
(4) سورة التوبة، آية 109.
(5) سورة النور، آية 36.
(6) أخرجه البخاري في صحيحه مع اختلاف يسير في اللفظ، كتاب: الفرائض، باب: ميراث الجد مع الأب والإخوة، حديث رقم: 6737.

أن قوله تعالى في كثير من آيات القرآن ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾[1]، ليس موجّها إلى الذكران من بنيه فحسب، وإنما هو خطاب لأبناء آدم وبنات آدم على حدّ سواء، كذلك فهم المسلمون من قوله تعالى ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾[2]، أن «الآباء» تشمل الوالد والوالدة على حدّ سواء، فسمّوا «محمد بن الحنفيَّ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو بن أمير المؤمنين «علي» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحنفية أمه امرأة من حنيفة، وفي المحدثين خلق كثير ممن دعوا إلى أمهاتهم، ومن أشهرهم «محمد بن حبيب» وحبيب أمه.

هذا ما أحببت أن أقوله باختصار في موضوع الخطاب القرآني، ثمّ إن الفهم الصحيح لكتاب الله، هذا أمر مهم جدّا، ولو أنني أحببت قبل ذلك أن أتطرّق بسرعة إلى موضوع المترادف في القرآن.

الحقيقة أنه لو دقّقنا النظر كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية «لوجدنا أن المترادف في اللغة قليل؛ يعني أن تقوم اللفظة مقام اللفظة الأخرى تماما، أما في القرآن فهو معدوم أو شبه معدوم»، هذا رأي شيخ الإسلام، ويضرب على ذلك أمثلة كثيرة مثلا: «الريب» ليس هو «الشك» بالضبط لأن «الريب» فيه نوع من التردد ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[3]، فمعنى «ارتابوا» اختلف على معنى «شكّوا»؛ لأن فيه من التردّد وهكذا.

أحببت هنا أن أغتنم مناسبة هذا الحديث لأقرأ عليكم نصّا كتبه الأستاذ الجليل تمام حسان في كتابه (البيان في روائع القرآن الكريم)، هو من أنفس الكتب التي تطرقت إلى موضوعات القرآن الكريم، حديثه عن الرحمن الرحيم، يقول: «أول ما يتبادر إليك

(1) سورة الأعراف، آية 26، وقد ذكرت في آيات كثيرة من القرآن الكريم.
(2) سورة الأحزاب، آية 5.
(3) سورة التوبة، آية 45.

عند النظر إلى هذين اللفظتين اشتراكهما في أصل الاشتقاق، والتعبير عن اتصافه تعالى بالرحمة، ولا اعتراض لنا على هذا الانطباع المباشر والسريع، لأنه إدراكٌ لحقيقة في اللغة والعقيدة». قال أبو الحسن ابن الواحديّ: «ولا فرق بينهما نحو ندْمان ونديم» ولكنك يقول تمام حسان: «إذا تجاوزت ذلك لاستقراء النص القرآني في السور المختلفة، ظفرت باختصاص كلّ من اللفظين استعمالات خاصة تحدّد لكلّ منهما توارُداً مع بعض الألفاظ التي لا يتوارد معها اللفظ الآخر، مثلا «الرحمن» يُخشى منه ومن عذابه ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[1]، الرحمن خالق الكون ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[2]،

فالإنسان يعوذ بالرحمن ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً﴾[3]، والنذر إنما يكون للرحمن ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيّاً﴾[4]، والشيطان يعصي الرحمن الذي تجب طاعته ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيّاً ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيّاً﴾[5]، ﴿ثُم لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عُتِيّاً﴾[6]، والرحمن يُسجَد له ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ﴾[7]، ويُنسَب العباد إلى الرحمن ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى

(1) سورة يس، آية 10.
(2) سورة الملك، آية 3.
(3) سورة مريم، آية 17.
(4) سورة مريم، آية 25.
(5) سورة مريم، آية 45.
(6) سورة مريم، آية 69.
(7) سورة الفرقان، آية 60.

ٱلأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰماً﴾[1]، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْداً﴾[2]، ﴿وَجَعَلُوا ٱلْمَلَٰئِكَةَ ٱلذِينَ هُمْ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثاً﴾[3]، الرحمن يُملي لعباده ويُمدّ لهم في الظلالة إن ظلوا ﴿قُل مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدّاً﴾[4]، العهد يُتخذ عند الرحمن ﴿لا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلاَّ مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْداً﴾[5]، الرحمن يستوي على العرش ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[6]، الحشر ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْداً﴾[7]، ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوۤاْ أَمْرِي﴾[8]، ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ ٱلأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً﴾[9]، ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰئِكَةُ صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنَ ٱذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾[10]، ﴿يَٰأَبَتِ إِنِّيۤ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيّاً﴾[11]، ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾[12]، ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦۤ ءَالِهَةً إِنْ يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ

(1) سورة الفرقان، آية 63.
(2) سورة مريم، آية 94.
(3) سورة الزخرف، آية 18.
(4) سورة مريم، آية 75.
(5) سورة مريم، آية 88.
(6) سورة طه، آية 4.
(7) سورة مريم، آية 86.
(8) سورة طه، آية 89.
(9) سورة طه، آية 105.
(10) سورة النبأ، آية 38.
(11) سورة مريم، آية 45.
(12) سورة الفرقان، آية 26.

لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلاَ يُنقِذُونِ﴾[1]، في حين أن كلمة «الرحيم» بالمقابل تأتي مقترنة دائما بالتوبة والرأفة والمغفرة والودّ والبرّ، ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[4]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[5]، ﴿فَمَنُ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[6]، ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[7]، ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ أَنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾[8]، ﴿إِلا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[9]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾[10]، ودائما تأتي الرحمة بهذا الشكل بصيغة «الرحيم»؛ فَهَاتَان الصيغتان هما متجاورتان في كتاب الله ﷻ.

ولكن مع ذلك توجد بينهما هذه الفوارق أو هذه الفويرقات إن شئنا، لكنها فويرقات واضحة جدّا؛ فالرحمن هو الله سبحانه وتعالى المتصف برحمة المقدرة، والرحيم هو الله المتصف برحمة المغفرة، وبينهما بعض الفرق، النبيّ ﷺ بيّن لأصحابه معاني القرآن كما بيّن لهم ألفاظه، فقوله تعالى ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[11]، يتناول هذا وهذا، قال أبو عبد الرحمن السلمي: «حدثنا الذين كانوا يُقرؤون القرآن

(1) سورة يس، آية 22.
(2) سورة البقرة، آية 53.
(3) سورة التوبة، آية 119.
(4) سورة البقرة، آية 142.
(5) سورة التوبة، آية 118.
(6) سورة البقرة، آية 172.
(7) سورة هود، آية 90.
(8) سورة الطور، آية 26.
(9) سورة الدخان، آية 40.
(10) سورة الشعراء، آية 216.
(11) سورة النحل، آية 44.

كعثمان بن عفان، وعبد الله ابن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلّموا من النبيّ ﷺ عشر آيات لم يجاوِزوها حتى يتعلّموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلّمنا القرآن والعلم والعمل جميعا»، وقال سبحانه ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[2]، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[3]، وتدبّرُ الكلامِ بدون فهم معانيه لا يمكن، وكذلك قال تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[4]، وعقل الكلام متضمّن لفهمه، ومن المعلوم أن كلّ كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرّد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك، والعادة تمنع كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله «أن يقرأ قوم كتابا في فنّ من العلم كالطبّ والحساب، ولا يستشْرِحوه؛ أي لا يطلبون شرحه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم وبه نجاتُهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم»، يقول الإمام ابن تيمية: «ولهذا كان الخلاف بين الصحابة في تفسير القرآن قليلا جدّا، وهو بيّن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة، فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم، أما في من جاء بعدهم»[5] فيمكننا أن نقسم الاختلاف في التفسير إلى قسمين:

- قسمٌ مستنده النقل فقط.
- وقسم يُعلم بالاستدلال.

---

(1) سورة ص، آية 28.

(2) سورة محمد، آية 25.

(3) سورة المؤمنون، آية 69.

(4) سورة يوسف، آية 2.

(5) مجموع الفتاوى (13/ 332).

والمنقول إما منقول عن المعصوم أو عن غير المعصوم، هذا عن غير المعصوم لا يهمنا طبعا، أما المنقول عن المعصوم فهنالك الضوابط التي تدلّ على صحته وحُسن نقله.

أما ما يعلم بالاستدلال لا بالنقل، فهذا أكثر فيه من الخطأ من جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم:

إحداهما قوم اعتقدوا معانيَ ثمّ أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها، وهذا ما نراه كثيرا في أيامنا هذه. والثانية قومٌ فسّروا القرآن بمجرّد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بكلام العرب، من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن سبحانه وتعالى، والمنزّل عليه صلى الله عليه آله وسلّم، والمخاطب به.

فالأوّلون راعوْا المعنى الذي رأوه من غير النظر إلى ما تستحقّه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان، والآخرون راعوا مجرّد اللفظ وما يجوز عندهم أن يريد به العربيّ من غير نظرٍ إلى ما يصلح للمتكلِّم به وسياق الكلام. ثمّ بعد ذلك أيضا هؤلاء الأوّلون صنفان، تارة يسلبون لفظ القرآن ما دلّ عليه وأريد به، وتارة يحملونه على ما لم يدلّ عليه، ولم يرد به، وفي كلا الأمرين قد يكون ما قصدوا نفْيَهُ أو إثباته من المعنى باطلا فيكون خطأهم في الدليل والمدلول. هنالك أمثلة عديدة على هذا الكلام، وأنا لا أريد أن أُطيل، وخاصة أن وقت الظهر قد حان، ولكن اسمحوا لي أن أشير إشارة سريعة إلى كُلَيْمات.

الكلمة الأولى: أعتقد أنه قد لفت النظر إليها قبل قليل أخونا الدكتور أبو سليمان، حينما ذكر «قضية الحكم»، والحكم هذه من الكلمات المخيفة؛ لأنها في أيامنا هذه تؤخذ على غير معانيها، وتصدر أحكام على الناس وعلى عقائدهم وعلى دينهم وعلى إيمانهم، على أساس هذا الفهم الذي يختلف عن المعنى الذي أُريد لها في كتاب الله وسنّة

رسوله. كلمة الحكم لم ترد في كتاب الله ولا حديث رسوله ﷺ أبدا بالمعنى الذي نقوله اليوم، وإنما وردت بمعنى القضاء، ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾[1]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾[2]، فالحكم حكم القضاء. كلّ ما ورد في الكتاب أو السنّة من كلمة «الحكم» ومشتقاتها، هو بالدرجة الأولى بهذا المعنى الذي هو القضاء، طبعا هنالك المعنى الآخر الذي هو حكم الله؛ يعني رأي الشرع في العمل الذي يقوم به الإنسان.

أما معنى الحكم الذي نتحدّث عنه اليوم فليس وارداً في القرآن والسنّة أبداً، لكن نحن نجد الآن من يجترئ على كتاب الله ويكفِّر مجموعة كبيرة من المسلمين على أساس أنه ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[3]، يفهمون منها هذا الفهم.

وبعد ذلك في قضية الحكم ومشتقاتها تصدر أحكام عجيبة جدّا، أطْرفُ هذه الأحكام في آخر الأمر، أن الغرب قد توصّل بعد أكثر من أربعة عشر قرنا إلى مفهوم يقوم على أساس أن يقوم اتخاذ القرار في كلّ قطاع من قطاعات الدولة أو قطاعات الإدارات أو ما شابه ذلك، على أساس أن يتشاوِر جميع من لهم صلة بهذا الأمر بما في ذلك الموظفون مثلا في شركة بالإضافة إلى أصحاب هذه الشركة أو ممثّلون عنها إلى آخره، فهل هذا التشارك جميعا وضعوا له كلمة كانت بمفهوم آخر في الماضي ثمّ

(1) سورة الأنبياء، آية 77.
(2) سورة النساء، آية 104.
(3) سورة المائدة، آية 46.

استعملوها لهذا المعنى، وهي كلمة gouvernance، فطبعا نحن أتينا لنقلّد هؤلاء الأسياد، ولذلك نقلنا هذه الكلمة بما ننقلها، طالما gouverner؛ معناها يحكم، إذا gouvernance لنخترع لها كلمة على وزن آخر، فمنهم من سمّوْها «الحوْكمة» ومنهم من سمّاها «الحكامة»، ومنهم سمّاها غير ذلك، وهذه هي الشورى بعينها، والذي استغرق العالم كلّ هذه القرون ليكتشفها فسّماها الحوْكمة أو الحكامة. تصوّروا الوضع الذي وصلنا إليه، حتى في مصطلحاتنا هبطنا إلى هذا المستوى.

وكلمة قريبة منها أيضا في المجال ولكن أقصد أنها اكتُشفت أيضا بعد أربعة عشر قرنا، وهي كلمة اسمها steward hip وقد اشتقت كلمات أخرى في لغات أخرى ما زالت تستعمل لها نفس هذه الكلمة، وهي «الحسبة» لذاتها، وsteward هو «المحتسب»، ومع ذلك تترجم بكلمات عجيبة جداّ لا أدري من أين جاءت، وما هي بدليل إلا على أننا لا نرتبط بمبادئنا ومصطلحاتنا الأصيلة في شيء، فهذه كلمة «الحكم» مثلا، ذكّرني بها الأخ الدكتور «عبد الحميد»، هي من الكلمات التي حصل فيها سوء في الفهم أو إساءة فهم عن قصد في ذلك.

كذلك مثلا كلمة «التأويل»؛ التأويل لها عدة معانٍ، وقد ورد أكثر من معنى في القرآن الكريم، ولها أكثر من معنى في اللغة العربية، ولكنها لم ترِد في القرآن الكريم إلا بمعنى واحد، وهو معنى «التحقّق» ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَـٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾[1]، والتحقق هو ما يسمّى التأويل، ولو قرأنا كلمة التأويل في كلّ الكتاب وفي حديث النبيّ ﷺ ؛ فمعناها التحقّق. في حديث النبيّ ﷺ مرّة استعملها لسيّدنا عبد الله بن عباس دعا له، وليعلّمه الله «التأويل»، وهنا يُقصد بها التفسير، ولذلك الإمام الطبري دائما يقول: «القول في تأويل قوله تعالى...إلى آخره»؛ يعني بها التفسير.

(1) سورة يوسف، آية 100.

أما المعنى الثالث؛ وهو صرف اللفظ عن ظاهره، فهذا لم يرد في القرآن ولا في السنّة أبدا، ولكنه مع الأسف أصبح هو المعنى السائد الذي يرجع إليه المسلمون جميعا، كذلك كلمة «النسخ» مثلا، النسخ وردت في القرآن الكريم بمعنى «إبطال فهم» وليس «إبطال حكم»، ولكن شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله يتحدّث فيها بشكل مفصّل في أواخر سورة البقرة، وأواخر سورة البقرة كما تعلمون الآيات الثلاث الأخيرة ﴿لِّله مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾[1]، عندها، المسلمون جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، وركعوا على الرُّكَب، وقالوا: «يا رسول الله كُلّفنا ما نُطيق، أما أن نكلَّف ما لا نطيق، شيء صعب؛ ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾، فالنبيّ ﷺ قال لهم: «لا تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾[2] بل قولوا ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[3]»[4]، فقالوها حتى لانت بها قلوبهم ـ لاحظوا نصّ الحديث بعد فنسخ الله الآية الأولى ـ وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾[5].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «الذي نُسخ ليس هو الحكم، وإنما هو المعنى الخاطئ الذي فهمه الصحابة رضوان الله عليهم، لأنهم فهموا ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾، على أنه يعاقبكم به الله، أما نصّ الآية ﴿يُحَاسِبْكُم﴾، والحساب لا يعني العقاب، وكلّ

(1) سورة البقرة، آية 283.

(2) سورة البقرة، آية 92.

(3) سورة البقرة، آية 284.

(4) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: التكليف، حديث رقم: 139.

(5) سورة البقرة، آية 285.

إنسان لابدّ أن يحاسب؛ حسابٌ لا ينجو منه أحد، على أيّ شيء، ولكن الحساب لا يعني العقاب.

فهذا الفهم الخاطئ الذي فهمه الصحابة نسخه الله سبحانه وتعالى بهذه الآية. وهذا ما هو معروف من قضية الفهم الذي يمكن أحيانا أن يطرأ بشكل من الأشكال على الجملة أو العبارة، ومنها على سبيل المثال، حينما يتحدّث الله ﷻ عن أنه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1]، ما من نبيّ ولا رسولٍ ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، الأمنيّة والتمنّي هنا معناها «التلاوة»، وأصل الكلمة باللغة العربية، التمنّي الكلمة الشائعة أكثر، معناها التلاوة وقراءة شيء من سورة، خاصة قراءة القرآن. فألقى الشيطان في أمنيّته يعني ألقى في تلاوته، فسمعها الناس بهذا المعنى الخاطئ ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾، فإذاً النسخ بالمعنى السائد في القرآن والسنّة، معناه «نسخ الأفهام» وليس «نسخ للأحكام»، ولكن مع ذلك الآن أصبحنا نجد كثيرا من الناس يجترؤون على كثيرٍ من أيِ الله ﷻ، ويقول هذه آية منسوخة وهذه آية منسوخة، وهناك ستّون آية منسوخة نسختها آية «السيف». كلمة «السيف» لم ترِد في القرآن الكريم أصلا، فالسلاح الوحيد الذي ورد في القرآن هو «الرمح»، «الرماح»، كذلك قضيّة «البدعة».

وكلمة «البدعة» أيضا من الكلمات التي أُسيء فهمها وتحويرها، لا أقول تحويلها تأويلها، فهماً غير مقبول على الإطلاق، وأصبحت الآن مصدراً أيضا لمهاجمة الناس في عقائدهم وإيمانهم، وما بينهم وبين الله، وأصبحنا نحكم على الناس بما يخيّل إلينا أن هذا الحكم، ومن هذا الباب مدخل كبيرٌ جدا. قال النبيّ ﷺ في حديث العِرْبَاض بن

(1) سورة الحج، آية 50.

سارية المشهور «ألا وإن كلّ محدَثة بدعة وكلّ بدعة ضلالة وكلّ ضلالة في النار»[1]، وفي حديث آخر في رواية أخرى «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»[2]، إذاً النبيّ ﷺ لم يذَرِ المسلمين على ما هم عليه حتى يبيّن لهم ما الذي يعنِيه بالبدعة، وقد عرّفها بقوله: «من أحدث في أمرنا هذا»؛ أولا «في أمرنا»، بعد ذلك «ما ليس منه». أما إذا كان الأمر... ما هو الأمر؟ واضح أيضا في الحديث الآخر الذي عرّفه النبيّ ﷺ «ما كان من أمر دينكم فإلي»[3] ـ إذاً هذا هو موضوع الحديث ـ «وما كان من أمر دنياكم فأنتم أعلم بأمر دنياكم» فهذا خارج عن الموضوع، إذا ما كان من أمر «البدعة» التي فيها حد لأمر النبيّ ﷺ، هي التي تتعلّق بأمر الدين، والثانية «ما ليس منه» أما ما كان من الدين ولو لم يكن معلوما على عهد النبيّ ﷺ، وهو منه فهذا لا يُعتبر بدعا ولا يعدّ بدعا.

ولكن التوسع في «مفهوم البدعة» وصل إلى نوع من الإسقاط غير المعقول، وأن نعتقد من الاستهانة بشرع الله ﷻ. هذه القضية «ما ليس منه» على سبيل المثال؛ الله سبحانه وتعالى يقول ﴿وَافْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾[4]، فأيّ فعل الخير؟، ولو لم يكن معلوما على عهد النبيّ ﷺ ما كان في إنشاء سبلان للماء في عهد النبي ﷺ ، وبعد ذلك أنشأوا سبيل زبيدة بئر مشهورة للحجيج، وما أشبه ذلك، هذا لا يقال عنها إنها بدعة،

(1) جزء من حديث أخرجه أبو داوود في سننه، مع عدم ورود لفظ: «وكل ضلالة في النار»، كتاب: السنة، باب في لزوم السنة، حديث رقم: 4607.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الصلح، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، حديث رقم: 2697.

(3) جاء في سنن ابن ماجه بلفظ: «إِنْ كَانَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ، فَشَأْنُكُمْ بِهِ، وَإِنْ كَانَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ، فَإِلَيَّ»، كتاب: الرهون، باب: تلقيح النخل، حديث رقم: 2471.

(4) سورة الحج، آية 75.

هذا مما أمر به الله سبحانه ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[1]، بادروا بالأعمال الصالحة. ولذلك اعتبره سيدنا عمر رضي الله عنه بدعة، لكن نعمة البدعة.

والإمام العظيم العز بن عبد السلام له في كتابه «قواعد الأحكام في مصالح الأنام»، فصل مختصر مفيد عن البدعة، ويقول: إن البدعة تنطبق عليها الأحكام أو تتعاورها الأحكام الخمسة: ـ الإيجاب ـ والتحريم ـ والكراهية ـ والاستحباب ـ والإباحة. ويضرب على ذلك أمثلة عديدة من أشهرها علم مصطلح الحديث الذي هو بدعة الذي لم يكن على عهد النبي ﷺ، ولكننا لولا علم مصطلح الحديث لأخطأنا في فهم كثير من الأحاديث أو الحكم على كثير من الأحاديث.

على كل حال، الحديث ذو شجون، وهناك كثير من الكلمات التي لو نظرنا فيها نظر تدقيق وحاولنا أن نفهمها كما أنزلت أو كما فهمها السلف الصالح لوجدنا أننا نبتعد ابتعادا كبيرا عما أراد الله عز وجل.

أذكر أخيرا في موضوع البدعة أن النبي ﷺ مرة كان يصلي، ويقتدي به الناس، فرفع رأسه من الركوع، وقال: سمع الله لمن حمده، فقال رجل ممن وراءه: ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يشاء ربنا ويرضى. فالنبي ﷺ عندما سلم قال: «أيكم قال هذه آنفا، قال الرجل: أنا يا رسول الله، قال: رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها»[2].

هذه بدعة لأن النبي ﷺ لم يذكرها من قبل، هو قررها بعد أن رأى الملائكة يبتدرونها، ليس قبل، لكن لا نستطيع أن نقول إنها سنة تقريرية. لكن ما دامت في أمور الدين وهي منه، فأهلا وسهلا بها، والنبي ﷺ أقرها بشكل صريح جدا.

---

(1) سورة البقرة، آية 147.

(2) أخرجه البخاري مع اختلاف يسير في اللفظ، كتاب: الأذان، باب: فضل اللهم ربنا لك الحمد، حديث رقم: 799.

فمن أجل ذلك علينا أن نكون ورعين، على الأقل، في هذا النطاق ولا نجترئ على كلام الله ورسوله بأنواع من التحريفات التي تلوي عنق النص وتحرف المعنى عن أصالته، ويمكن أن تكون سببا في إحداث الفرقة بين المسلمين، أو حتى في إحداث مقتلة بين المسلمين. والله تعالى أعلم.

أعتذر لكم مرة أخرى عن هذه الإطالة، ولكن ذكرت عذري في البداية، فاعذروني فقد تجاوزت سن السبعين.